الجذور التاريخية لمقولة نهاية التاريخ

ان مقولة نهاية عصر الايديولوجيات او نهاية الصراع الايديولوجي او نهاية التاريخ مفاهيم جرى الحديث عنها في عصور مختلفة ومستويات عدة تحت حجج ومبررات مختلفة ، وان ما طرحه فرانسيس فوكوياما في كتابه نهاية التاريخ – والانسان الاخير – لم يكن سبقا فكريا ، بل سبقه اليه العديد من الكتاب والمفكرين ، فمقولة نهاية التاريخ من المقالات التي تعود جذورها الى القرن التاسع عشر عندما كان كارل ماركس يتصور حدوث ثورة تؤدي الى نهاية كل اشكال الاغتراب وبناء عالم محرر من القيود والضغوط ، التي تؤدي بدورها الى نهاية الاغتراب الديني ونهاية الفلسفة التأملية العقلية ، اذ ستكون نهاية الايديولوجية بإحلال الحقيقة الملموسة والعملية محل التفسيرات والتمثيلات المستخدمة من قبل الطبقات المسيطرة ، نهاية الدولة بالتلاشي من خلال اجتثاث الملكية الخاصة والقمع البوليسي ونهاية الاقتصاد السياسي بالانتقال الى الرخاء ، نهاية التاريخ ونهاية الطبقات ذاتها من خلال بناء مجتمع بلا طبقات ، هذه النهايات التي طرحها ماركس .

لقد ساهم عالم الاجتماع الفرنسي (اوغست كونت) في ترسيخ اسس نهاية الايديولوجيا في القرن التاسع عشر عندما حاول ان يفسر اسباب الصراعات التي كانت سائدة في عصره وايجاد حلول لها ، فلم يرجع كونت الصراعات القائمة الى عوامل اقتصادية او طبقية او الى تناقض المصالح ، ولكنه ارجعها الى نماذج فكرية وسلوكية تنتمي الى مراحل تاريخية منصرمة تشترك في اسس وضع حرية الانسان وحقوقه قدمها في مقابل المراحل التطورية وهي :-

١- المرحلة اللاهوتية : التي ترى ان مصير الانسان محكوم بقوى سماوية تمتد من بداية التاريخ حتى الاصلاح الديني .
٢- المرحلة الميتافيزيقية : وهي عصر النقد والتمرد التي توجتها الثورة الفرنسية ووضع اعلان حقوق الانسان والمواطن.

٣- المرحلة العلمية او الموجبة : التي يمكن ان نطلق عليها التاريخ المعاصر اذ حلت المعرفة عن الانسان ، الطبيعة ، محل الجهل واوهام العصور السابقة ، واصبحت حقوق الانسان والحريات العامة مطلبا لا تستطيع اي دولة تجاهله .

بهذا المعنى فان الصراعات الايديولوجية عند كونت تنتمي الى مراحل تتحدد بالأولى والثانية من تطور الفكر البشري ، اذ كان الفرد يسعى الى ترسيخ حقوقه وحرياته ، لذلك دعا الى نبذ هذه الصراعات من خلال اكتشاف وتطبيق القوانين العلمية لحل المشكلات الاجتماعية وبناء نظام يتحقق فيه الاستقرار المجتمعي ويحقق الانسان كل ما يصبو اليه ، وعند الوصول الى هذا الاستقرار ستكون نهاية الايديولوجيا ، وقد بشر كونت بان افضل صورة لاستقرار المجتمع تتمثل في الرأسمالية للحياة الاقتصادية والسياسية التي هي في نظره تتويج للتاريخ والتطور الانساني ، لأنه يؤمن ان المجتمع الانساني يعيش على التنظيم اكثر مما يعيش على الايديولوجيا ، وبذلك يكون اوغست كونت قد وضع حجر الاساس لفكرة نهاية الايديولوجيا التي انطلق منها علماء اجتماع غربيون في القرن العشرين امثال ريمون ارون ودانيال بيل واخرون .

ولعل ممن ساهم في تعزيز مقولة نهاية الايديولوجيا عالم الاجتماع الالماني (ماكس فيبر) عندما رفع شعار فصل (السوسيولوجيا) عن القيم والى تأسيس علم اجتماع علمي موضوعي على اساس تنزيه التحليل الاجتماعي عن كل تغرض ايديولوجي .

ان نهاية الايديولوجيا كانت لها صدى قوي داخل الاوساط الثقافية الغربية في خمسينات القرن العشرين ، وما يؤكد ذلك انعقاد مؤتمر (ميلانو) في ايلول عام ١٩٥٥ ، الذي يعد حدثا مهما اقترن بمفهوم نهاية الايديولوجيا ، فقد تحدث ادوارد شيلز Edward Shils في مقال له حمل عنوان (نهاية الايديولوجيا) في تشرين الثاني ١٩٥٥ والذي يعتقد انه اول من استخدم هذا العنوان وشاع استخدامه منذ ذلك الوقت (ان دعم عملية التحرر الليبرالي والاشتراكي من الافكار غير الضرورية ، وان الكشف عن الاساس المشترك لهما والتهيئة لوضع افكار اكثر واقعية توجب نقد الايديولوجيا) وبعد اقل من خمس سنوات على عقد المؤتمر صدرت عدة دراسات نظرية اجتماعية وسياسية لتدعم مقولة المؤتمر وابرزها نهاية عصر الايديولوجيات بهدف تحرير الثقافة وتحرير الانسان من كل القيود كضرورة للمجتمع ما بعد الصناعي .